نعم مختلفون

مختلفون في اللغة والثقافة والدين والعادات وطريقة التفكير، بل إننا نختلف أحيانا داخل البيت الواحد، وبين أبناء البيئة الواحدة. وهذه ليست المشكلة الحقيقية، لكنها في الطريقة التي نتعامل بها مع هذا الاختلاف، هل نراه مساحة نتعرف فيها إلى بعضنا، هل هو جدار نختبئ خلفه من الآخرين؟ وهل نستطيع أن نعيش مع من لا يشبهنا، دون أن نشعر أن اختلافه ينتقص منا؟

هنا تحديدا تبدأ قضية الاندماج والتعايش. فالاندماج، لا يعني أن نتخلى عن خصوصياتنا حتى نصبح جميعا شيئا واحدا، لكنه يعني أن نكون مختلفين وقادرين، في الوقت ذاته، على أن نكون جزءا من مجتمع واحد.

أن تحتفظ بلغتك وثقافتك وعاداتك، وتفتح في الوقت ذاته مساحة للغة وثقافة وعادات الآخرين. أن يكون لك انتماؤك، دون أن يتحول انتماؤك هذا إلى ذريعة لإلغاء انتماء غيرك.. يمكن أن نختلف في الدين واللغة والثقافة، ثم نتفق على احترام الإنسان، وحفظ كرامته، والعيش بأمان، والعمل من أجل مجتمع أفضل. ويمكن أن نحمل ثقافات مختلفة، ثم تجمعنا مدرسة واحدة، وشارع واحد، ووطن واحد، ومصالح مشتركة. لكن هذا النوع من الاندماج لا يحدث تلقائيا، إنه يحتاج إلى تربية اجتماعية تبدأ من حيث يتشكل وعي الإنسان الأول. حيث يمكن حدوث ذلك عبر تطبيق الوسائل والممارسات التي تساعد على تحويل الخلاف من سبب صراع إلى فرصة تعاون وتعلّم. أهم الوسائل.. وضع قواعد للحوار.. الاستماع، عدم السخرية، عدم التعميم. والتركيز على الفهم. وتربية الأجيال على التعددية وقبول الآخر. وتقوية المعرفة عبر تبادل المعلومات الموثوقة، إضافة إلى المشاريع المشتركة التي تشترك فيها كافة فئات المجتمع، وبناء قنوات الاتصال بين أفراد المجتمع، وتشجيع التفكير النقدي وعدم الانغلاق. إن إدارة الخلاف بالحكمة ومنع التصعيد، والتقدير الثقافي والفكري والاحتفاء بالمعرفة، وفرض القوانين والعدالة الاجتماعية بتطبيق الحقوق على الجميع بدون تمييز يخلق أجواء إيجابية ويتحول ساعتها التنوع من عبء نخشاه، إلى ثروة وقيمة نبني بها مجتمعا أوسع وأذكى وأكثر إنسانية.

وهنا يأتي دور البيت والمدرسة والإعلام ومؤسسات المجتمع. لأنها الأماكن التي يتعلم فيها الإنسان كيف يرى المختلف عنه قبل أن يلتقي به. إن الاندماج الثقافي سلوك يومي يبدأ من طريقة حديثنا داخل بيوتنا وينتهي بطريقة تعاملنا مع الناس في الشارع والعمل والمدرسة.

غير أن هذا التحدي لم يعد محصورا في حدود المكان، فقد جاءت التقنية ووسعت دائرة الاختلاف إلى حد لم تعرفه المجتمعات من قبل. لم تعد الثقافة التي تسكن بجوارك هي الثقافة الوحيدة التي تراها، ولم تعد اللغة المختلفة تحتاج إلى سفر كي تسمعها، ولا العادات الأخرى تحتاج إلى أن تنتقل إليها حتى تعرفها. العالم دخل إلى هواتفنا، ونحن دخلنا إلى عوالم الآخرين بضغطة واحدة. وهذه فرصة كبيرة للاندماج والتعارف، لكنها في الوقت نفسه تحمل خطرا آخر، فالتقنية تستطيع أن تقرب المختلفين، لكنها تستطيع أيضا أن تجعل كل واحد منا يعيش داخل دائرة لا يرى فيها إلا من يشبهه، فيظن أن العالم كله يفكر بالطريقة التي يفكر بها.

حينها يصبح الوعي أهم من التقنية نفسها. فالمشكلة ليست في أن نرى ثقافات العالم، وإنما في أن نراها بلا قدرة على التمييز. ليست المشكلة أن يتعرف أبناؤنا إلى ثقافات أخرى، وإنما أن يتلقوها إما باعتبارها النموذج الذي يجب تقليده، أو اعتبارها خطرا يجب مقاومته. وبين التقليد الأعمى والرفض الأعمى تضيع المساحة التي نحتاجها أكثر من أي وقت مضى، ولذلك فإن حماية التنوع الثقافي في عصر التقنية لا تعني أن نعزل مجتمعاتنا عن العالم، فهذا أصبح مستحيلًا، ولا أن نتركها مفتوحة بلا إدراك، لأن هذا قد يحول الانفتاح إلى ذوبان.

نحن فقط بحاجة إلى مجتمع لا يخشى الاختلاف، ولا يحوله إلى معركة هوية في كل مرة. وليست قوة المجتمع في أن يجعل الجميع متشابهين، وإنما في قدرته على أن يمنح المختلفين جميعا شعورا بأن لهم مكانا فيه. فاذا شعر الإنسان أن اختلافه لا يسلبه حقه في الانتماء، يصبح أكثر استعدادا للمشاركة، وللعطاء، وأكثر قدرة على احترام اختلاف الآخرين.